دار الدين القيم
للنشر والتوزيع

عائد

Returning

فضيلة الشيخ
محمد الصاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب الأرض والسماء، خلق فسوى وقدر فهدى، له الفضل والثناء والمجد.

لـــك محيـــاي خالـــصًا ومـــماتي
يـــا إلـــهي ويـــا عظـــيم الـــصفات
لـــك ســـعيي وفيـــك غايـــة حـــبي
ونجـــاوى ضراعـــتي وصـــلاتي
وســـجودي معـــراج روحي وعقـــلي
وانعتـــاقي ولذتي وحيـــاتي
وكـــأنيَّ في بحـــر نـــورك طيـــفٌ
هـــائمُ الـــشوقِ واجـــف العـــبراتِ
وكـــأن الوجـــود محـــراب تقـــديسٍ
وذكـــرٍ أفـــنى بـــه عـــن ذاتي

وأرى الكـــون والفـــضاء كتابًـــا
سُـــطِّرت فيـــه أروع الآيـــاتِ
كل شيء مرآتـــه عنـــك تحـــكي
وترينـــا الإبـــداع والمعجـــزاتِ
ولـــسان الوجـــود يلهـــج بالحمـــد
اعترفًـــا منـــه بفـــيض الهبـــاتِ
ربِّ رحمـــاك كل نبـــضة عـــرق
مـــن فـــؤادي تجـــيش بـــالدعواتِ
قـــصَّرت همـــتي وَهِـــيضَ جنـــاحي
أيـــن مـــني النهـــوض بالواجبـــاتِ
أيـــن بـــذلي مـــن أجلـــك النفـــسَ
والمـــالَ ومعـــنى تجـــردي وثبـــاتي
طالمـــا قـــد ظلمـــت نفـــسي فعفـــوًا
وأعـــنِّي يـــا رب على الطـــاعاتِ
ورجـــائي وحـــسن ظـــني وصـــدقي
هـــو يـــوم الحـــساب حبـــل نجـــاتي

وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ..

أما بعد ..

أيها الأخوة الأحباب ..

.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

« عائد »

رسالة لمن يريدون البكاء ..

رسالة لمن جفت عيونهم ومآقيهم ..

رسالة لمن يبحثون عن رقة القلوب ..

رسالة لمن يبحثون عن الخشوع والخضوع ..

والذل والإنابة ..

رسالة اعتراف وإقرار ..

كل صورة حزن ..

كل صوت أنين ..

كل مشاعر توبة .. أُسطِّرُها اليوم ..

أُسطِّرُها .. من داخل فؤادي ..

وأنا والله .. معترف بالتقصير ..

فلن أُوفي ربي حقه أبدًا ..

تسكت الألسنة .. وتقف الكلمات عاجزة .. ويجف الحبر .. وتنكسر الأقلام .. وتنتهي الورقات ..

ولا يبقى شيء نستطيع به التعبير عن تقصيرنا في حق المولى الكريم ﷻ ..

في غرفة مظلمة وسط بيت صغير في قرية بعيدة ..

وفي زاوية من هذا العالم الفسيح .. كان هشام يقف صافًّا قدميه لله ﷻ ..

كانت كل خلية في جسده تبكي .. وكل جارحة وعضو من جسمه يعترف ..

تسبق الدمعات دعواته:

يا رب .. يا رب .. اليوم جئتك وفي داخلي كلام كثير ..

لا أدري ما أقول يا رب ..

لا أدري ماذا أقول يا رب ..

أعلم أنك أنعمت عليَّ كثيرًا .. أعطيتني الصحة .. أعطيتني البصر .. أعطيتني السمع .. أعطيتني المشي والحركة ..

أعطيتني الأم والأب .. والأخوة والأخوات ..
والزوجة والأولاد ..
أعطيتني يا رباه مالًا كثيرًا .. ورزقًا كبيرًا ..
لكنني .. يا رب أقولها بكل حرقة وألم :
أنا مقصِّرٌ يا رب ..
أنا جئتك اليوم أعترف بين يديك ..
أنا جئتك اليوم أبتهل بين يديك ..
أنا جئتك اليوم أنطرح بين يديك ..
أنا جئتك اليوم أتضرع إليك ..
أنا جئتك اليوم .. فهل ستقبلني ..؟!
من يرحم ذلي وافتقاري .. ؟! من يرحم ضعفي وعجزي ..؟!
من يرحم مسكنتي وهواني ..؟!
إلهي .. عصيتك كثيرًا .. وكنت عليَّ حليمًا ..
نظرت إلى الحرام .. ولم تعاقبني ..
سمعت الحرام .. ولم تعاقبني ..
أكلت الحرام .. ولم تعاقبني ..

سبحانك ما أعظم حلمك .. سبحانك ما أكبر عفوك ..

والله يا رب .. أنا نادم على كل معصية فعلتها ..

والله يا رب .. أنا تائب من كل كبيرة ارتكبتها ..

والله يا رب .. أنا عائد من بعد ما هربت منك ..

غرَّني حلمك وعفوك .. ظننت أن السعادة في المعاصي .. فرُحت أتقلب فيها يمينًا وشمالًا ..

فجأة قلت لنفسي:

من الذي يُجري الدم في عروقك ..؟!

من الذي يتحكم في حركتك ..؟!

من الذي يتحكم في عقلك ..؟!

من القادر على إيقاف نبضات قلبك ..؟!

من القادر على شلِّ أطرافك ..؟!

من القادر على تعطيل نفسك ..؟!

إنه الله ..

قد تنام يومًا يا هشام فلا تصحو .. قد تأكل الأكلة يومًا يا هشام فلا تستطيع أن تبتلعها .. وقد تبلعها فلا تستطيع أن تهضمها ..

قد يتوقف جسمك فجأة وأنت تقود السيارة .. قد تسقط فجأة وأنت في الشارع ..

قد تكون بين أمك وأبيك .. وزوجتك وأولادك .. وفجأة تغادرهم .. وأنت تلعب ..

قد .. وقد .. وقد...

أنا عائد إليك يا رب فاقبلني .. أرجوك أنت الرحيم ..

أنت الكريم .. أنت الحليم ..

سبحانك لا أحصي ثناءً عليك ..

من يقيل العثرات سواك ..؟! من يغفر الزلاتِ سواك ..؟!

من يمحو الخطايا سواك ..؟!

أدعوك يا كريم، يا رباه أنت قلت:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

ها أنا الآن أصفُّ قدميَّ بين يديك ..

قلبي خاضعٌ إليك .. وعيني فائضةٌ إليك ..

أنا العبد الذليل المنكسر .. وأنت القوي العزيز ..

فهل سيشملني عفوك ..؟ وهل سينالني فضلك ..؟

يا رب .. آوني، أنا وحدي في العراء لا نصير لي

لا معين لي .. لا قريب لي .. لا حامٍ لي .. لا مؤيد لي .. لا ناصر لي .. أنت حسبي.. أنت كافيني.. أنت مُعيني ..

إلهي إن تركتني تسلَّط عليَّ الأعداء ..

إلهي إن هجرتني استولى عليَّ الأعداء ..

إلهي إن طردتني فيا بؤسي والشقاء ..

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ

وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ

وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صح منك الود فالكل هينٌ

وكل الذي فوق التراب ترابُ

يا قادر .. يا قاهر .. يا عليمٌ بحالي ..

يا مطَّلعٌ على أقوالي .. يا من تشاهد أفعالي ..

هل يرضيك يا رب انكساري الآن بين يديك ..؟

يا ربِّ .. الشيطان يدعوني إلى الزنا .. وأنا أقول:

لا .. ربِّي أحبُّ إليَّ ..

يا ربِّ .. الشيطان يدعوني إلى الغناء .. وأنا أقول:

لا .. ربِّي أحب إليَّ ..

يا ربِّ .. الشيطان يدعوني إلى الربا .. وأنا أقول:

لا .. ربِّي أحب إليَّ ..

يا ربِّ .. الشيطان يدعوني إلى الحقد والضغينة .. وأنا أقول:

لا .. ربي أحب إليَّ ..

فهل ستتركني يا رب بين يدي عدوك بلا سلاح ..؟

يا من لا يخيب من رجاه .. يا من لا يضيع من أتاه ..

هل سَتُسَلِمُني إلى الشيطان لأني عصيتك ..؟

لا يا رب.. أنت أكرم وأحلم وأعظم ..

أعلم يا رب أنني أغضبتك كثيرًا ..

كي أُرضي نفسي وشهواتي ..

أعلم أنني أغضبتك يا رب كثيرًا ..

كي أُمتع في جسمي لذاتي ..

أعلم أنني أغضبتك يا رب كثيرًا .. كي أعيش حياتي ..

لكن .. والله الآن يا رب حياتي بلا نوم .. حياتي بلا طعم .. حياتي بلا لذة ..

كنت معك يا رب في جيشك .. كنت يومًا من جندك ..

كنت يومًا من أوليائك ..

أحمل السلاح على الشيطان وأعوانه ..

لا أسمح لنفسي بمعصية .. ولا أُعطي فرصة لذنب ..

وفجأة .. !!

وبينما أنا واقف في الصف مع الجنود .. إذ بالشهوات تتزين أمام عيني .. وإذ بالمعاصي تتراقص أمامي .. وإذ بجنود الشيطان قد جاءوا يجرونني .. لأكون في جيشهم ..

فضعف يقيني .. وقلَّت عزيمتي .. وأغراني الهوى ..

فرميت سلاح أهل الإيمان .. وخلعت الترس الذي كنت أحمي به صدري .. وهربت من جيشك يا مولاي ..

وانطلقت إلى جيش أهل الطغيان ..

وحملت معهم السلاح .. وأصبحت أناصر الشيطان .. وأقف في وجه أهل الإيمان ..

أغضب من كل من يدعوني إليك .. وأشمئز حين يأتي ذكرك .. وأُغرِي كل من يحاول أن يتكلم عن الإيمان ..

يُزيِّن أصدقاء السوء ليَّ المعاصي .. وينفخ الشيطان فيَّ الإعجاب ..

وأصبحت من جند الشيطان المخلصين ..

وأعوانه الصادقين ..

وفجأة .. !!

تأملت حلمك عليَّ .. وشفقتك بي .. وعطفك لي ..

وكرمك .. وجودك .. كنت تقول:

هو عبدي .. هو أحد جنودي .. وسيعود .. فلا تؤذوه يا ملائكتي ..

وبينما أنا في جند الشيطان .. إذ بي أجد قلبي يشتاق إليك يا رحمن .. يشتاق إلى كنفك يا رحمن .. يشتاق إلى القرب منك يا رحمن ..

فرميت سلاح الأعداء .. وانطلقت مسرعًا عائدًا إلى جند الإيمان ..

كنت أجري مسرعًا إليك ..

كنت أرقد في تلك الصحراء .. وأنا أبكي خوفًا من أن أموت قبل أن أصل إليك ..

وها أنا قد أتيت الآن وانطرحت بين يديك يا مولاي ..

والله يا رب أنت تفرح بتوبتي ..

والله يا رب أنت تفرح بعودتي.. ألست أنا عبدك ..؟

يا رب .. خذني إلى شاطئ الرحمات ..

يا رب .. خذني إلى وادي الخيرات..

افرح بي هذه الليلة يا رب ..

والله يا رب .. لو أُعطيت اليوم كنوز الدنيا .. لو أُعطيت ذهبها وفضتها .. لو أُعطيت لآلئها وخيراتها ..

فإن هذا كله لا يساوي فرحتك بي ..

أنا المحتاج فقربني إليك .. أنا المحتاج فافتح لي بابك ..

طال وقوفي .. طال قيامي .. طال نوحي .. طال دعائي .. طال رجائي .. طال ابتهالي ..

طرقت عليك .. وتَعِبت يدي من الطرق على بابك ..

آن والله يا كريم أن تغفر لي الآن ..

آن والله يا كريم أن تعفو عني الآن ..

آن والله يا حليم أن تستر عليَّ الآن ..

بحر جودك لا ساحل له .. وخزائن فضلك ملأى .. ويديك سحَّاءَ الليل والنهار .. لا تغيضها نفقة ..

فاقبلني يا أرحم الراحمين ..

إن كنت قد عصيتك .. فوالله لأني لم أَقْدُرك قَدرَك ..

إن كنت قد أغضبتك .. فوالله لأني لم أَقدُرك قَدرَك ..

إن كنت قد استهنت بنظرك إليّ .. فوالله لأني لم أَقْدُرك قَدرَك .. كانت تمر عليّ هذه الآية:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

كانت تمر عليَّ هذه الآية وأنا لا أبالي .. كنت أتعجب من نفسي القاسية التي لا تتوب ..

كنت أناديها وأصرخ .. كنت أطلب منها أن تقترب من الله أكثر ..

لكن الشيطان .. وضعف إيماني كانا أقوى ..

أناديهـــا وتـــأبى أن تُجيبـــا
وتبعـــث ردهـــا دومًـــا عجيبـــا
أناديهـــا وأصرخ هـــل تتـــوبي
فـــترفض أن تعـــود وأن تتوبـــا
وتُبحـــر والهـــوى يغـــزو خطاهـــا
يُزيِّـــف دربهـــا يُخـــفي العيوبـــا
ويلقيهـــا الهـــوى ســـكرى بـــأرض
يبـــابٍ لا تـــرى فيهـــا حبيبـــا
وتنظـــر علَّهـــا تلـــقى خلـــيلًا
فيـــأتي الـــصمت مكتومًـــا رهيبـــا
وتـــزرف دمعهـــا والهـــم يكـــوي
حـــشاها والأسى يُـــذكي اللهيبـــا
ويأتيهـــا صـــدى الأعمـــاق يـــبكي
أطعـــت الإثـــم خالفـــت الطبيبـــا
غَرِقـــت وقـــد رميـــت الطـــوق يومًـــا
وكنـــت كمـــن رمى شـــيئًا كئيبـــا

رَكِبت مراكب الشهوات حتى
جنيت الشوك حصَّلت الذنوبا
وتمضي في فلاةِ الهون عطشى
مزعزعة الخُطى تشكو الكروب
تعثر فوق رمل من جحيم
وشمس العمر توشك أن تغيبا
وتبحث عن هدًى يسقي حماها
وعن روضٍ تشاهده قريبا
وتصرخ صاحبي أمسيت حيرى
وقلبي جاء للمولى منيبا
فمدَّ يديك عانقني بحب
فمازلت المؤدِبَ والأريبا
ركضت تجاه محرابي أناجي
إلهي كدت من خوفي أذوبا
أتت نفسي إليك تريد عفوا
فشفعني بها كن لي مجيبا

رجوتـــك أنـــت تُـــصلحها إلـــهي
وتمنحهـــا الأمـــان لـــكي تتوبـــا
رجوتـــك فـــارضَ عنهـــا يـــا إلـــهي
ومَـــن يُعـــطَ رضـــاك فلـــن يخيبـــا
فـــإن نفـــسي زكـــت فالـــشرُ ولَّى
وفـــاح شـــذى الإنابـــة منهـــا طيبـــا

كان هشام يبكي بحرارة، كانت كل دقة دم في قلبه تقول: لبيك يا رب، لبيك وسعديك والخير كله بيديك.

ها أنا قد عدت بعد هروبٍ طويل، ها أنا قد عدت بعد سفرٍ بعيد، فإذا لم تقبلني يا مولاي فما حيلتي وما رجائي وأنت حيلتي ورجائي، وإليك أرفع ندائي.

أبعد هذا كله يا مولاي أكون أنا أشقى خلقك..؟

لا يا رب .. لا أموت وأنت غير راض عني ..

ثم أُدخَل إلى قبري فيضمني ضمة تختلف فيها أضلاعي ..

ويأتيني عملي القبيح في صورة إنسان قبيح ..

ويُفتح لي بابٌ إلى النار .. وأُعذَّب في قبري عذابًا شديدًا ..

لا يا رب ..

رحماك بي .. فإن جسدي لا يقوى على عذابك ..

ثم بعد ذلك أُبعث من قبري .. وأُحشر مع المخلوقات عُريانًا .. لا شيء يستر جسدي .. ولا شيء يُخفي عُيوبي ..

آه من حسرتي حينئذٍ ..

آه من حزني وألمي ..

ثم أمشي على الصراط .. والنار من تحتي تزفر وتغلي .. وكلاليبُها تخطف الناس ..

فيا ترى هل ستختطفني هذه الكلاليب ..؟

هل سأحترق بهذه النار التي أُوقد عليها ألف عامٍ حتى ابيضت .. وألف عامٍ حتى احمرت .. وألف عامٍ حتى اسودت .. فهي سوداء مظلمة ..

لا يا رب ..

ثم أين يكون مآلي ..؟

مع من ..؟

مع فرعون وهامان ..؟ مع الذين كذَّبوا الرسل ..؟

مع الذين حاربوا محمد ﷺ ..؟

أُسقى صديدًا وزقومًا .. وتقيدني الأغلال والنيران ..

يا حسرتي .. يا أسفي ..

كان هشام يتأوه بشدةٍ .. كان يقول:

يا رب .. يا من أمرتنا بالمسارعة إلى جناتك ..

ها أنا الآن أُسارع إليك .. وفي قلبي لك حب وذل ..

صحيحٌ أنني فعلت الفواحش ..

صحيحٌ أنني ظلمت نفسي ..

لكنَّ كرمك وعفوك أكبر ..

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦].

نعم والله .. نِعمَ أجر العاملين ..

مولاي .. بحق عبوديتي لك .. بحق فقري إليك .. بحق أني عبدك المسلم .. أسألك هذه الليلة أن تتولاني ..

أسألك هذه الليلة أن لا تطردني ..

أسألك هذه الليلة أن لا تبعدني ..

أسألك أن تكون معي ..

كم هي أفضالك ..؟

كم هي أنعامك ..؟ كم هي خيراتك ..؟

والله يا رب .. لو بقيت العمر كله واقفًا على قدميَّ .. فلا أدري أيكفي هذا لترضى عني ..؟

يا رب .. يا رحمن .. أدخلني حديقة الرضا ..

يا رحمن .. ارحمني من بحر الدموع الذي أغرق فيه الآن ..

كبَّلتني الشهوات والزلات .. ففُكَّ قيدي يا رب ..

انزعني من الرقِّ الذي أنا فيه يا رب ..

لقد أدركت يا رب أن رِقِّي إليك ..وعبوديتي لك .. هي قمة العز والرفعة ..

لقد أدركت يا رب أن مفاتيح الخير بيديك ..

لقد أدركت يا رب أن خزائن الرحمة عندك .. وليست عند أحد سواك ..

سبحانك ما أعظمك ..

سبحانك ما أحلمك ..

سبحانك ما أجلَّك وأقدرك ..

بكى هشام كثيرًا ..

وبكى .. تذكر هشام قصة صديقه يونس ..

يونس الذي كان بعيدًا عن شاطئ الإيمان .. تناديه الصلاة فما يجيب .. كان مغترًّا فرِحًا بقوته ..

يذهب للشاطئ ليصطاد السمك .. ويتاجر فيه .. وربما حانت صلاة الجمعة والخطيب على المنبر يخطب .. ويونس لا يبالي ..

كم آية طرقت سمعه فما اتَّعظ .. كم قصة وصلت إليه فما استفاد .. كم من حديث من أحاديث رسول الله ﷺ قُرِأ عليه فما خشع قلبه ..

حتى جاء ذلك اليوم ..

خرج من بيته فجرًا ..

كان الناس يُصلُّون صلاة الفجر جماعة .. ويونس يُعد شبكته وسنارة الصيد .. ثم بدأ يمشي على قدميه تجاه الشاطئ .. حتى يبدأ الصيد مع طلوع الفجر ..

كان يعبر الشارع وفي عقله الكثير من الأحلام والأمنيات .. وفي جوفه الكثير من الآمال ..

وفجأة .. !!

إذ بسيارة مسرعة .. يقودها مجموعة من الشباب العصاة تصطدم بيونس .. ليسقط صريعًا على الأرض .. يسقط بلا حراك .. والدماء تتناثر منه .. من كل مكان في جسده ..

نزل إليه هؤلاء الشباب .. قلَّبوا يونس يمينًا وشمالًا .. فلم يتحرك ..

ظنوا أنه قد مات ..

كان يونس قد أُصيب بشلل كامل .. سبحان الله ..!!

ذلك الجسد القوي الذي كان متكبرًا ومتغطرسًا على الله ..

نعم شلل كامل ..

أما هؤلاء الشباب .. فقالوا:

مادام أن الرجل قد مات .. فليس هناك حلٌّ إلا أن نحمله ..

ثم نضعه على قضيب القطار الذي يمر عليه فجرًا .. وسوف يدوسه القطار دون علم أحد ..

حملوا يونس .. وضعوه في مؤخرة السيارة ..

كما توضع الذبيحة.

سبحان الله .. !! ما أهون العاصي على الله .. !!

كان يتمنى أن يصرخ بكل ما أُوتي من قوة ..

لكنه لا يستطيع .. هو الآن مشلول ..

حملوا يونس .. وضعوه على القضيب الحديدي الذي يمر عليه القطار .. تركوه وانصرفوا ..

وبدأت اللحظات تمر على يونس بصعوبة كبيرة ..

ها هو يترامى إلى سمعه من بعيد .. صوت القطار القادم ..

يا سبحان الله ..!!

أبعد هذا العمر .. وبعد هذه الأمنيات .. وبعد هذه الأحلام ..؟

أين أذهب ..؟

أموت .. ولا أحد يعلم عني شيئًا ..!!

مرت أمام عينيه صورٌ عديدة .. السيجارة التي كان ينبعث دخانها بشراهة ..

المؤذن يناديه من المسجد المجاور .. ولا يجيب نداء الله ..

صورة السمك .. وهو يتلاعب في شبكته ..

صورة الناس وهم يخرجون من المسجد من صلاة التراويح في رمضان ..وهو لا يبالي ..

صورة المصحف الذي كان يضعه للزينة فوق الرفِّ في صالة المنزل ..

يا رباه .. يا رباه كم أنا مُقصِّر في حقك ..

يا ترى ماذا كان يدور في بال يونس الآن ..؟

هو الآن يبحث عن ذرة أمل في النجاة .. في أن يعود إلى الحياة .. يقول:

في تلك اللحظة بالذات .. في تلك اللحظة صرخت أعماقي:

يا رب .. أنت تسمع الآن جوفي .. أنت تسمع الآن دقات قلبي .. نظرة شفقة إليَّ يا رب ..

نظرة عطف إليَّ يا رب .. لحظة إحسان واحدة يا رب ..

أعاهدك يا رب .. أن أعود إليك إن أنت أنقذتني ..

أعاهدك .. أن لا أعصيك .. أن لا أغضبك ..

يا من يصل المنقطعين .. صلني بك ..

كل شيء في داخل يونس كان مشلولًا ..

تذكر نظرات الشباب المتوحشة .. وهم يقولون:

الحمد لله .. لقد مات .. علينا أن نضعه على قضيب القطار ..

ومن بعيد .. اقترب القطار .. أكثر .. وأكثر ..

وبدأ صوته يصل إلى أُذن يونس ..

وهنا سالت دموع يونس ..

بكى بقوة .. بكى .. وبكى ..

كل شيء فيه محطم ..

والدماء تزرف منه بقوة وغزارة ..

يا إلهي .. يا إلهي ..

واستجاب الله في تلك اللحظة .. !!

لقد أرجع الله ليونس قدرته على تحريك الأحبال الصوتية في حلقه .. ليقول لمدة عشر ثواني فقط: آه.. آه..

وفي مزرعة قريبة .. تناهى إلى سمع ذلك المزارع تلك الآهات .. وأسرع ليرى جسد يونس ملقى على القضيب الحديدي ..

وفجأة .. !!

إذ بيونس يرى الفلاح يحمله ويبعده عن القضيب الحديدي .. قبل أن يمر القطار بدويِّه المعروف .. بلحظات يسيره ..

لم يتمالك يونس نفسه .. كانت الدموع تشق طريقها على خده ..

سبحانك ربي ما أعظمك ..!!

سبحانك ربي ما أحلمك ..!!

والله يا شباب الإسلام ..

والله يا فتيات الإسلام ..

يحدثني من قابل يونس بنفسه .. يقول:

يونس .. ثمانية أشهر كاملة في المستشفى على السرير الأبيض .. ينتظر الشفاء .. كانت دعوات قلبه لا تتوقف .. ودموع عينيه لا تجف ..

ليس بحثًا عن الشفاء فقط ..!! بل شكرًا للملك القادر ..

وبعدها خرج يونس إلى الحياة مرة أخرى .. بصورة مختلفة .. وصوت مختلف .. ومشاعر مختلفة ..

لقد استنار الوجه بالإيمان .. لقد مُلئ القلب بمحبة الرحمن .. لقد وجد يونس بُغيته في القرب من الله سبحانه وتعالى ..

أصبحت اللحية تُجمِّل وجهه ..

صوته أصبح الذِّكر يُحسّنه ..

مشاعره أصبحت الجنات والحور العين والأنهار تملؤها ..

.. فكان هشام في محرابه جالسًا يتذكر تلك الأحداث التي جرت لصديقه يونس .. ولا يزال في قلبه اعتراف وإقبال وخضوع وابتهال ..

عندها سجد هشام برأسه على الأرض وبدأ يناجي ربه:

يا مولاي .. هذه ناصيتي الخاطئة بين يديك .. الآن أذل بها على الأرض من أجلك .. أعفِّرها في الأرض كي ترضى ..

لو يرضيك يا ربي قتل نفسي لقتلتها ..

لو يرضيك .. يا رب إزهاق روحي أزهقتها ..

مولاي .. أنا وحدي بين ذئاب المعاصي .. فلا تخذلني ..

مولاي .. أنا وحدي بين أمواج الشهوات .. فلا تُغرقني ..

مولاي .. أنا وحدي بين أنياب السباع .. فلا تتركني ..

مولاي .. هل أطلب القوة من أحد سواك وأنت القوي ..؟

إلهي .. هل أطلب النصرة من أحد سواك وأنت النصير ..؟

خالقي .. هل أطلب الرفعة من أحد غيرك وأنت العزيز ..؟

يا دموع العين سيلي.. يا نفسي نوحي..

يا قلبي القاسي ابكِ على نفسك .. فربما إذا رآك ربك وأنت تبكي يرحمك ..

الآن أعلنها يا رب .. الآن أرفعها يا رب ..

عدت إليك فقربني .. عدت إليك فخذني ..

أخشى الهلاك يا ربي.. أخشى النفاق يا ربي..

كان هشام يبكي وهو يتذكر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه .. وهو يقول لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

«يا حذيفة أسألك بالله هل عَدَّني رسول الله ﷺ من المنافقين ..؟».

آه .. يا هشام ماذا تقول أنت عن نفسك ..؟

تذكر أبا بكر الصديق .. وقد كان في خدَّيه خطان أسودان من البكاء ..!!

تذكره وهو يقول:

«يا ليتني شجرة تُؤكل .. والله لو كان لي قدمٌ في الجنة وأخرى خارجها ما أمنت مكر الله ..».

تذكر الحسن البصري .. وهو في لحظات الاحتضار .. عندما قال له بعض جلسائه:

لا تبكِ يا أبا سعيد .. لا تبكِ فأنت لك فضل وسبق في العلم والعبادة والدعوة ..

فبكى الإمام الحسن البصري وقال:

ومن أبو سعيد ..؟ ومن الحسن البصري ..؟ أخشى أن يُلقي بي في النار ولا يبالي ..!!

فهل سيبالي الله بك يا هشام ..؟!

هل سيتوب عليك الله يا هشام ..؟

يا كل دمعة سيلي الآن .. ويا كل عين ابكِ الآن ..

يا كل عاصٍ تُب الآن ..

يا كل عاصية توبي الآن ..

أرجوك يا رب اقبلني ولا تطردني ..

أدعوك يا رب حبب إليَّ الإيمان وزيِّنه في قلبي .. وكرِّه إليَّ الكفر والفسوق والعصيان .. واجعلني من الراشدين ..

اللّهُمَّ يا حي يا قيوم .. يا ذا الجلال والإكرام ..

أصلح شباب المسلمين .. وأصلح فتيات المسلمين ..

اللّهُمَّ خذهم إليك يا حي يا قيوم .. اللّهُمَّ خذهم إلى شاطئ التوبة يا ذا الجلال والإكرام .. اللّهُمَّ ألقِ التوبة في صدورهم يا رب العالمين ..

اللّهُمَّ ألقِ عليهم السكينة والرحمة .. اللّهُمَّ اصرف عنهم المعاصي والشهوات والآثام والسيئات ..

يا رب كل شابٍ يرفع كفيه إليك ذلًّا وافتقارًا ..

ويا رب كل شابٍ يبكي إليك يسألك .. أن تغفر له ..

كل فتاة بيننا الآن تسمعنا تسألك وتدعوك ..

يا رب أن تتوب عليها ..

نسألك جميعًا يا رب بصوت واحد أن تغفر لنا سيئاتنا .. وأن ترفع لنا درجاتنا ..

يا رب نسألك أن تحقق أمانينا وأن تبلغنا آمالنا ..

نسألك أن تقر أعيننا بعودة المسجد الأقصى سالمًا غانمًا إلى حوزة الإسلام والمسلمين .. اللّٰهُمَّ هذا الدعاء .. ومنك الإجابة .. وهذا الجهد وعليك التكلان .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تـــم الـــكلام وربنـــا المحمـــود
وله المـــكارم والعـــلا والجـــود
ثـــم الـــصلاة على النـــبي محمـــد
مـــا نـــاح قُمـــريٌ وأورق عـــود

وصلى اللّٰهُمَّ وسلم وبارك على النبي محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *